تكنولوجيات الاتصال وتأثيرها على الطفل

مصطفى مجاهدي/ مليكة بن دودة

جامعة وهـــران

مقدمة:

لقـــد ارتبط البحث في تأثير تكنولوجيات الاتصال تاريخيا بالحرب العالمية الثانية،وبالخصوص مع الموجة الأولى مـــن المفكرين الذين أسسوا لنشأة هذا العلم كحقل قائم بذاته،أمثال : هوفلاند،ولاسويل،ولازرسفيلد الذين أثارت انتباههم قدرة هذه الوسائط الاتصالية على تغيير مواقف واتجاهات الناس بسرعة فائقة،وحضرت هـــذه الدراسات الأرضية للموجة الثانية من الباحثين الذين سعوا إلى وضع مخططات لتفسير التأثير انطلاقا من العلاقـــة بـــين بنية المنتوج الإعلامي وكيفية استجابة المتلقي لمحتوى الرسالة،وعرفت هذه الابحاث في أدبيات الاتصال بدراسة "رجع الصدى"،ثم استقلت السبرنيطيقا *cybernetique* بهذا الاختصاص أي مجال التحكم في السلوك من خلال المضامين الإعلامية.

وعليـــنا أن ننبه كذلك إلى أن بحوث الاتصال استفاذت كثيرا من النتائج التي حققتها المجالات الأخرى التي اهتمـــت بإشكالية التلقي ونقصد بذلك الدراسات الفلسفية والأدبية على وجه التحديد، والتي قطعت أشواطا مـــتقدمة في محاولـــة ضبط الروابط بين الابداع في النص الأدبي وما يتيحه للقارئ من فرص إعادة الانتاج من خـــلال فعل القراءة، ومهما كانت الاختلافات بين طبيعة النص الأدبي والرسائل التي تبثها الوسائط الإعلامية، فـــإن جســـور التواصـــل بين المجالين قائمة باعتبار النص المقروء جزء من العملية الاتصالية، والمتلقي في جميع الحـــالات هو الانسان الذي يستقبل الرموز على أساس مرجعية معقّدة تتضمن القيم الاجتماعية والثقافية التي يتلقاها عن الجماعة الاجتماعية التي ينتمي اليها، ثم تجاربه الخاصة التي تظهر كمعايير ذاتية في فهم وترجمة هذه القـــيم ميدانيا، وإذا كان هذا المتلقي لم ينضج كفاية بحيث، يدرك ويبلغ مرحلة التمييز بين ما يتلقاه من إنتاج إعلامـــي والرصـــيد الرمزي الذي يكتسبه في مراحل نشأته الأولى، فإن الحديث عن تأثير وسائل الإعلام بكل أشكالها على الطفل، يمثل رهانا جديدا في إشكالية التأثير والتلقي.

الإشكالية:

يثير الحديث عن تأثير تكنولوجيات الإعلام في تكوين شخصية الطفل تساؤلات عديدة حول هذا الموقف الاتصـــالي المتميز، وعن الكيفيات التي تشتغل بها مخّيلة الطفل على ما توفره له هذه التكنولوجيات من بدائل، ويـــف تســـهم الأطر الاجتماعية والنفسية للطفل في تحديد طبيعة التلقي ونوعية التأثير وإنتاج المعاني الجديدة للأشياء.

وتقتضـــي الإجابة على هذه التساؤلات بحث العلاقة بين هذه الأطر الاجتماعية والنفسية المختلفة وأشكال التلقي، فنحن نفترض هنا مبدئيا أن الطفولة هي شريحة غير متجانسة من حيث الجنس، ومن حيث انتماءاتها الاجتماعية والتباين في تجاربها النفسية .

فالحقيقة السوسيولوجية والنفسية التي تطرح كمتغيرات يفرضها الواقع،تدعونا إلى إعادة النظر في تصوّرنا لمعـــنى التأثير الناجم عن عملية التلقي وكيف تسهم تكنولوجيات الإعلام والاتصال في تكوين شخصية الطفل في ظل هذه المقاربة السوسيولوجية التي نتحدث عنها.

ونعـــتقد أننا هنا أماما إشكالية معقدة تقتضي تفادي التسرع في التنظير حول هذه العلاقة الموصولة بين الـــتلقي والـــتأثير وعلـــيه سنحاول خلال هذه المداخلة، الوقوف على التطور الحاصل في مجال دراسة تأثير تكنولوجيات الإعلام، من خلال الأنماط التي انتهت إليها البحوث المختلفة، ثم توضيح التحديات التي تفرضها المعطيات السوسيولوجية والنفسية أمام دراسة إشكالية التلقي والتأثير عند الطفل، وفي الخطوة الثالثة نستعرض التحّولات الناجمة عن دخول الانترنيت ميدان المعاملات، والتي دخلت بفضلها الجزائر في مرحلة جديدة من الـــتحولات الاجتماعـــية والثقافـــية، التي مست الطفل بشكل خاص، وربما لا يتطلب الأمر الكثير من العناء لاكتشـــاف ذلك،بل يكفي فقط أن نزور إحدى مقاهي الانترنيت لنشاهد كيف يجتمع الأطفال حول الجهاز ســـواء لممارســـة الألعاب الالكترونية أو لمشاهدة ما تقترحه هذه الشبكة من منتجات مختلفة، ما هي الأدوات التي يمكن أن نستعملها، لدراسة التأثير بشكل عام، والتأثير في الطفل على وجه التحديد؟

نظريات التأثير:

ضمن هذا التطور المرحلي في دراسة التأثير،تمثل نظرية "الطلقة السحرية" الطور الجنيني في محاولات تفسير الآلـــيات التي تؤثر بها تكنولوجيات الاتصال في الجمهور، إلا أن هذه النظرية التي تأثرت بمنطق **باڤلوف** كانت تـــنظر للتأثير كعملية آلية تحدث عند البشر وفقا للمنعكس الشرطي، ومثلت الخطاب كمصل يحقن في شرايين الجمهـــور فيســـتجيبون بطريقة آلية ومتشابهة لمفعوله، ومجمل الانتقادات التي وجهت لهذه النظرية قامت على أســـاس الاخـــتلافات بـــين البشر فيما يتصل بالتلقي، وهذه الاختلافات بين أفراد الجمهور والتي تبلورت في الدراسات الاجتماعية والنفسية، غيّرت النظرة في التعامل مع التأثير على أساس النظر" للمستقبل كمفسّر وليس كجهاز تسجيل[1]".

وعـــلى هـــذا الأساس تراجعت النظرة الشمولية للتـــأثير وانطلقت مرحلة جديدة تسير في اتجاهين تحاول الأولى توضـــيح العلاقة بين البناء المنطقي و/ أ والبناء الدرامي للمحتوى الإعلامي من جهة، وكيف تتفاعل مع بنية التلقي عند الأفراد،أما الاتجاه الثاني فيحاول تحديد عناصر مشتركة بين أفراد جماعة اجتماعية معينة تجعلهم يســـتجيبون لأي برنامج بصيغ متشابهة،ومن هنا بدأت نظرة التفكير في التلقي في علاقته بمصالح مشتركة بين أفـــراد الجماعـــة، وبالتالي، فالتلقي عند الشريحة الأطفال التي تشترك في سن معين والتي لها نظرتها الخاصة في

---

[1] -أحمد بدر،الاتصال بالجماهير بين الإعلام والتطويع والتنمية،دار قباء،القاهرة،1998،ص17.

تصّـــور علاقاتهـــا مـــع المحيط، ليس هو التلقي عند الطبقة الشغيلة التي لها مصالح مشتركة وتطلّعات مهنية،و نضالات نقابية وصراعات مع أرباب العمل.

وانطلاقـــا من هذا التصوّر للتأثير كحالة مستقلة، وضع" De Fleur دي فلير نمطه السيكوديناميي[1]" الذي يحـــاول مـــن خلالـــه تفسير العلاقة بين المحفّزات الاقناعية التي تحملها الرسائل وتأثيراتها على الجانبين النفسي والاجتماعي، ولقد مثل النمط على الشكل التالي:

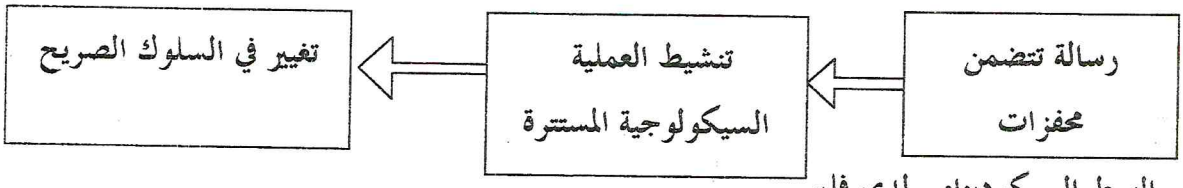

النمط السيكوديناميي لدي فلير

والعلاقـــة هنا تكمن في قدرة المحفّزات التي يحملها المنتوج الاعلامي في طياته على تحريك وتنشيط العملية الســـيكولوجية ودفعهـــا في اتجاه معين،و من هنا يمكن القول أن فاعلية الخطاب تتوقف على دوره الوظيفي وقدرتـــه عـــلى التعامل ومحاورة البنية النفسية للمتلقي،بما في ذلك الطفل،و نجاح هذا الحوار يرتبط بكيفيات التعامل السليم مع القيم التوجيهية والقيم الادراكية للأفراد، التي تحدد طبيعة التلقي.

هـــذه النتائج التي انتهى اليها دي فلير ساعدت جماعة من الباحثين على رأسهم" **كومستوك**[2]" على وضع لبـــنة أخرى في صرح سيكولوجيا التأثير لوسائل الاعلام وبيّنت هذه الجماعة من خلال دراسات ميدانية قدرة الـــتلفزيون على التأثير في السلوك،بناء على الكيفية التي يشكل بها سياق الأحداث وأسلوب الإثارة،وإمكانية تنفيذ الانسان (المتأثر) للسلوك المشاهد في التلفزيون واقعيا،إذا ما توفرت له ظروف مواتية لذلك.

وكانت إحدى العقبات التي واجهت ميدان هذا البحث تتعلق بطبيعة التأثير،إذ صّنف بعض خبراء الاتصال الـــتأثير الـــناجم عـــن وسائط الإتصال ضمن خانة التأثير القصير المدى الذي تزول آثاره بعد مدة وجيزة من الزمن،لكن هذا الطرح لم يصمد أمام البحوث الميدانية التي أثبتت أن وسائل الاتصال لم تعد مجرد وسائط لنقل الأخـــبار،بل تجاوزت وظائفها هذه الحدود لتستحوذ على مجال التكوين،بفضل دخولها الفعلي والدائم في الحياة اليومية للأفراد، واستحواذها على وظيفة التكوين.

الطفل وإشكالية التلقي والتأثير:

لقد وضحنا فيما سبق الصعوبات التي تواجه البحث في تأثير تكنولوجيات الاتصال بشكل عام، ونعتقد أن الـــتعامل مـــع التأثير كحالة متجانسة تحدث لدى الأفراد بالدرجات نفسها، لا يمكن أن يسهم عمليا في فهم خصوصـــية الـــتلقي والـــتأثير في الطفل كحالة خاصة. ومن هنا تأتي الحقيقة السوسيولوجية والنفسية لتطرح

---

[1] -De Fleur ,M . « Théories of Communication » ,New York :David Mc Kay,1970.

[2] -Comstock,G..Chafee ,S. ,McCombs,M. and Roberts,D.1978 « Télévision and human Behaviour ».New York :Columbia University Press.

تحديـــات جديـــدة أمـــام دراسات التأثير،ونقصد بذلك أن يعاد النظر في إشكالية التلقي والتأثير على أساس الاختلافات في الانتماء السوسيولوجي والبناء النفسي للأفراد، فالطفل لا يتلقى الرسائل الاعلامية ولا يتأثر بها بالكيفية نفسها التي تحدث عند البالغين أو عند المرأة .

والســـؤال الآخـــر الذي يطرح نفسه علينا أمام أي محاولة للتنظير في مجال تأثير تكنولوجيات الاعلام في الطفـــل، يتصل بسوسيولوجية الطفولة :هل يمكننا الحديث عن الطفولة كشريحة اجتماعية متجانسة؟ أم هناك طفولات،أي أن هذه الشريحة التي يجمعها السن،إنما يفرقها الجنس،وتفرقها الانتماءات الاجتماعية،وخصوصية التجارب النفسية كحالات ذاتية.

وعلى هذا الأساس، فإن البحث في التلقي لم يكن سوى ضمن اشكالية عامة تعاملت مع التلقي بنوع من التســـطيح، وحددت لنفسها "المتلقي النموذجي" و لم تأخذ بعين الاعتبار الفوارق بين الشرائح (الرجل، المرأة، الطفل...)،وهذه الفوارق تجعلنا ننظر للتلقي عند الطفل كحالة خاصة، فهو متلقي مثالي بحكم براءته، في حين أن دراســـات التلقي لم تتعامل معه على أنه المتلقي المقصود، والذي يتفاعل مع ما يتلقاه من العالم الخارجي من رموز،وفقا للمعطيات التالية:

I -التطابق بين الحقيقة والخيال:

لقـــد سمحـــت لنا الفرصة في عدة مناسبات بمحاورة عينات من الأطفال حول اعتقادهم في مدى واقعية الأحـــداث التي يشاهدونها عبر الوسائط الاعلامية، فتبين لنا أن الطفل قبل سن الثامنة خاصة، يعتقد أن كل ما يـــراه في وســـائل الاعلام هو الحقيقة،و مرد ذلك في رأينا إلى أن الطفل لا يملك القدرة الكافية التي تمكنه من وضـــع المشهد محل تساؤلات تقع ضمن ثنائية الحقيقة والخيال، بل ينساق وراء الأحداث وفقا للبناء الدرامي الـــذي كثيرا ما يحتكم إلى منطق وجداني مؤثر، وبحكم براءته قد يطرح تساؤلات حول عناصر ثانوية ترتبط بالمشـــهد،و يكـــون من السهل فهم هذه الصورة الكلية التي تحكم مخيلة الطفل والتي تجعله ينظر للعالم كوحدة موصـــولة الأجزاء، ولا يفرق بينها سوى خلال مراحل لاحقة من النضج تؤهله للانخراط في مستوى آخر من مستويات التلقي، فقد أظهرت دراسات ميدانية في اليابان، ارتفاع نسبة الانتحار لدى الأطفال (مابين 15/12 سنة)، الذين يترددون على قاعات الألعاب الالكترونية، التي تقترح مجموعة من ألعاب العنف بمستوى عال من الابتكار والإتقان بحيث تكسر الحدود بين العالمين الواقعي والافتراضي.

فحديثنا عن الجنس يهدف إلى التفريق بين هذه البنت التي تهدى لعبة العروس فتصنع من نفسها أما في سن مـــبكرة، وهذا الذي خرج إلى الشارع حاملا القوس والرماح متأثرا بمسلسل "الشنفرى" في شوارع العاصمة وتـــيهرت وكـــل المدن الجزائرية إنما هم الذكور، والطفل الذي يبيع السجائر على قارعة الطريق يختلف عن ذلك الذي يمضي ما تبقى من وقته على جهاز الكمبيوتر، وطفل الريف ليس طفل المدينة، والذي كان ضحية المأساة ليس كالذي تابعها عبر شاشة التلفاز، وبالتالي فالحديث عن تأثير متجانس دون مراعاة معطيات الواقع هو مجازفة علمية تسير بنا نحو الأحكام القيمية المسبقة.

الافتراضي والواقعي:

لقد تحدثنا سابقا عن هذا التداخل بين الحقيقة والخيال في مخيلة الطفل، وهذا التداخل يقدم له لعالم الافتراضي على أنه عالم واقعي، ويقيم بذلك علاقات اعتبارية على أساس وجود واقعي وحقيقي للشخصيات التي يلتقي بها في المشاهد الدرامية المختلفة، وهذا ما يفسر اندماج الطفل بعمق في سياق الأحداث بحماس ويحس أنه طرف في هذا العالم الذي تنتجه الرموز.

وتـــؤدي هـــذه العلاقة الاعتبارية الدور الجوهري في تكوين شخصية الطفل ومن المعلوم أنه يتحرك داخل المشاهد بكل حرية وفقا للتجربة الآنية التي تحكم الموقف الاتصالي، والتي تحدد في الوقت نفسه شكل التلقي.

الطفل والأنترنيت:

كـــيف تؤثـــر الانترنيت في عالمنا المعاصر؟ وماهي ميكانيزماتها؟ وما هي أبعادها ومكانتها المستقبلية ؟ وحدود تأثيرها على الطفل ؟

تـــرى السوســـيولوجية **فاطمـــة المرنسي** أن تطوّر التقنيات الجديدة للاعلام وانتشار مقاهي الانترنيت في المجـــتمعات التقلـــيدية ســـاعد على تطور العلاقات الانسانية ... وخلق مستوى جديد من الحوار والاتصال فالواضـــح أن الـــتحولات التي تخلقها هذه التكنولوجيات ليست فقط علمية وتقنية ومادية،بل هي اجتماعية نفســـية وحتى انثروبولوجية، ولقد مست هذه التحولات كل مجالات الحياة وكل الشرائح الاجتماعية، فنحن نعـــيش مرحلة اعادة انتاج لعلاقات اجتماعية،داخل المؤسسات المجتمعية الكبرى (الأسرة، والمدرسة على وجه الـــتحديد)، و عليه سنحاول خلال هذه الفقرة التعريف بهذه الوسيلة التكنولوجية للاتصال، ثم توضيح كيف تعمل التيارات العميقة ضمن مسارات التأثير .

يوجـــد على مستوى العالم اليوم، أكثر من ثمانين مليون مستعمل للانترنيت، وترتقب الاحصائيات خمسة ملايير مستعمل خلال سنة2005[1] وهذه الأرقام تبدو مهمة .

تترجم الانترنيت إلى العربية بشبكة *NET* العالـــية فالانترنيت هي شبكة لمجموعة من الشبكات :مجموعة من أجهـــزة الكمبيوتر تمثل بنك المعلومات،متصلة بآلاف أجهزة الكمبيوتر الفردية،عند ظهور أول شكل للشبكة ســـنة 1969و هو"Arpanet " كانت الدوافع عسكرية بحتة، تتمثل في حماية جهاز المعلومات الأمريكي، في حالـــة ضربة عسكرية مفاجأة،المبدأ الأساسي في هذه الشبكة هو توصيل المعلومة، في اللحظة نفسها وحتى لو تعطلت مجموعة من الأجهزة.

عـــندما أعلن الرئيس الأمريكي *CLINTON* سنة 1993، رسميا عن فتح الشبكة العالمية للجميع قائلا "لقـــد أعطي الضوء الأخضر: منذ اليوم سيصبح الانترنيت للجميع وليصبح الألدورادو الجديد" عندها انقسم العـــالم إلى مجموعـــتين :مجـــتمعات "الإعلام الغني" *INFORICHE*وهي المتصلة بشبكة الانترنيت ومجتمعات

---

[1] اعتبرت الجزائر حتى سنة 1997 من بين الدول المصنفة كأعداد الإنترنت.

"الإعلام الفقير *INFOPAUVRE* وهي التي لم تتصل بعد بشبكة الانترنيت، لماذا أصبح الاتصال بالشبكة العالمية لغنى الشعوب أو فقرها؟ كيف وصلت التكنولوجيات الجديدة لحد إعادة تقسيم المجتمعات وفق معايير جديدة؟ ماهذا الجديد الذي تقدمه الإنترنت مقارنة بالمطبعة، مثلا وما مدى تأثير دلك على ثقافة الطفل؟

الإنترنت أو الخروج عن المكان

يـــرى الصحفي ألبغونتي، في كتاب له: "في مدرسة الإنسان الآلي" أن: التدريس في القـــرن19، كان يتطلب إنصـــاتا دينـــيا، مـــن قبل التلاميذ بمعنى أن نموذج المدرسة كان على هيئة الكنيسة، فماذا عن مدرسة القرن العشرين: "إن الإنترنت تضع كل واحد أمام مصدر الأفكار والأساتذة لن يكونوا المنبع الوحيد للمعلومة بمعنى أن نمـــوذج مدرســـة الإنترنت هو التفاعل L'interactivité والانفتاح، الأمر الذي دفع بعض المختصين إلى الاعـــتقاد في امكانـــية إنشاء مدارس كونية (des classes planétaires، يكفي أن نطلع على التجربة الكندية لـــنفهم ذلك1.إن التحول الذي تحدثه الإنترنت على مستوى "المعرفة"، حدث في عصر النهضة تماما في القرن 16، عـــندما ظهـــرت على مستوى الكتب العلمية، تقنية الفهرس(index) في الرصد المتقاطع للمراجع، ما تقدمـــه الإنترنـــت اليوم هي نفس التقنية لكن الإحالات عن طريق تقنية النص المتشابك (l'hyper texte)، تســـمح لنا بالانتقال إلى كتب اخرى وإحالات في مراجع متعددة وليس فقط داخل المرجع نفسه، اضافة طبعا إلى لحظويـــة(instantanéité) تحقق كل هذا. لذلك فإن الخدمة التفاعلية للإنترنت تجعلنا نتساءل عن مصير الكتاب، هل سننتهي يوما من قراءة القصيدة على كتاب؟

يرى المفكر **فينكلكراوخت** في تعبير جميل عن جمالية القراءة ان : « القصيدة هي القصيدة، ولا يمكن اكتشـــافها إلا مـــن خلال ورقة مطبوعة، ان نعود إليها، أن نحفظها، أن نشرحها، لا بد للكلمات من مسكن دائم، مكان لنتركهم فيه على راحتهم، هذا المكان هو "الكتاب"[2].

فالـــنص المتشـــابك ينقلنا من نص إلى آخر لينهي ما كنا نسميه بالأثر الفني(l'œuvre) فالانترنت تقترح قراءة للنصوص لا الكتب، وقد يكون الوقت قد حان لنتساءل عن خطر قراءة النصوص عبر الانترنت، الذي خلـــق تقليدا لدى الطلبة والباحثين، وخاصة الأطفال الذين يجدون سهولة في الحصول على النص ولا يفكرون بعدهـــا في البحـــث عـــن المصدر ولا حتى اقتنائه، فيتشكل لديهم بذلك رصيد من القراءات دون قراءة فعلية الكتاب.

---

[1] L'utilisation de l'Internet pourrait donc très bien favoriser la disparition des frontières entre les disciplines, rendant ainsi l'enseignement plus conforme à la réalité d'une société dans laquelle les questions et les problèmes auxquels sont confronté les individus sont bien souvent à caractère multidisciplinaire. De plus comme l'expose Tardif : « Non seulement les nouvelles technologies de l'information et de la communication offrent des possibilités énormes de franchir les barrières disciplinaires, mais les regards multiples qu'elle permettent de porter sur différents phénomènes ou divers événement sont fondamentalement multidisciplinaires »

[2] Finkilkraut, Alain, Soriano, Paul, *Internet, l'inquiétude extase*, Mille et une nuits, 2001,p.30.

خاتمة:

كان الغرض منذ بداية المداخلة، هو توضيح تلك الصعوبات المرتبطة بدراسة التأثير،بشكل عام، وإشكالية التأثير عند الطفل على وجه التحديد،و حاولنا أن نوضح أن دراسة إشكالية التلقي والتأثير عند الطفل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار،خصوصية الطفل وفقا للحقائق النفسية والسوسيولوجية .

وهـــناك نقطة أخرى، تتمثل في دور المجتمع في هذا الموضوع، وهو ضرورة مراقبة الطفل في هذه العملية لما قد تحمله من خطورة، دون أن ننسى المراحل التي عاشتها الجزائر، خاصة مرحلة العنف والإرهاب التي أسهمت في تشـــكيل ذهنية الطفل، وجعلته ينفرد بتجربة خاصة، لا يشاركه فيها أطفال العالم،فالطفل الجزائري الذي عـــاش العنف، يتلقى هذه المشاهد العنيفة، بذات متألمة، لأنه مثلما ذكرنا يتفاعل مع الأحداث ببراءة ولا يفرق بين الحقيقة والخيال.

و نحن نحتاج في الجزائر إلى رصيد تراكمي لتأسيس تصور علمي مبني على الدراسات الميدانية التي تقدم لنا الحقيقة العلمية في صورتها الموضوعية.